

معالم في قراءة مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

Milestones in reading the concept of civilization when Malik bin Nabi

مجاهد تامي

جامعة سعيدة "الدكتور مولاي الطاهر" (الجزائر)، tamimedjahed@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 20-04-2023 تاريخ القبول: 25-06-2024 تاريخ النشر: 30-06-2024

ملخص:

تقوم هذه الدراسة على أساس أن مالك بن نبي كان يدعو العالم الإسلامي إلى الأخذ بتجربة تستمد معطياتها من واقع المشكلة بعد تحليل عناصرها دون التأثير بالمفاهيم التي زرعتها الحضارة الغربية المعاصرة في أفكارنا ومن ثمة كانت دعوته صريحة إلى تأسيس علم اجتماع مستقل يختص بدراسة مشاكل العالم الثالث بعد الاستقلال متبنيا في ذلك التخطيط لمستقبله السياسي والاجتماعي والاقتصادي وفق خطة تنمية بعيدة عن ضجيج الحضارة المعاصرة وإفرازاتها من مفاهيم ماركسية ومشكلات رأسمالية.

الكلمات المفتاحية: الحضارة؛ مالك بن نبي؛ العالم الإسلامي؛ عالم الأفكار.

Abstract :

This study is based on the fact that Malik bin Nabi was calling on Islamic word to take an experiment that derives its data from the reality of the problem after analyzing its elements without being affected by the concepts that contemporary western civilization has implanted in our thoughts. Hence, his call was explicit for the establishment of an independent sociology that deals with the study of the problems of third world after Independence adopts in that planning for its political, social and economic future according to a development

plan far from the noise of contemporary civilization and its secretions of Marxist concepts and capitalist problems.

Keywords: Malik bin Nabi, the Islamic word, civilization, word of idias.

المؤلف المرسل: تامي مجاهد، tamimedjahed@yahoo.fr

1. مقدمة:

ليس من المنطق والإنصاف أن نتناول الحديث عن الحضارة في فكر مالك بن نبي دون أن نتساءل عن مفهومه لها أولاً؟، وما هي المرتكزات الأساسية لبناء المجتمعات العربية؟ وكيف ينتقل إنسان ما بعد الموحدين إلى عالم متحضر؟ وتيسيراً لهذه الوقفة واقتصاداً لزمناها، نرى أنّ أيّ مجتمع يسعى إلى غاية معينة، فهو بذلك يندفع في حركة تقدّمه إمّا إلى تكوين حضارة وإمّا إلى الانهيار؛ ولذلك نجد أنّ المجتمع حينما يفقد حركته، فإنّ هذه الجماعة تفقد تاريخها إذ تصبح لا غاية لها. "تكسب الجماعة الإنسانية صفة المجتمع عندما تشرع في الحركة أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها. وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة"¹.

أمّا المجتمع الذي يمر بحالة السكون فإنّ له حياة اجتماعية دون غاية معينة وبذلك يظلّ قابلاً في مرحلة ما قبل التحضر.

وعليه نقول: "إنّ الطبيعة توجد النوع ولكن التاريخ يصنع المجتمع وهذه الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، هو ما نطلق عليه اسم الحضارة"².

2. تعريف الحضارة:

تامي مجاهد

إن موضوع الحضارة موضوع متفرع ومتشعب فيه آراء ومدارس، وقد تعرضت كلمة "الحضارة" عبر التاريخ إلى التطور والتغيير واختلف معناها بين مدرسة وأخرى لذلك لجأت في هذا البحث إلى عرض مجموعة من التعاريف المختلفة للحضارة وتطور مدلولها عبر العصور كتمهيد للموضوع، والموضوع ومدى علاقة هذه المفاهيم بالأستاذ مالك بن نبي.

تعرف كلمة حضارة في معجم متن اللغة العربية كما يأتي: "الحضارة ضدّ البداوة والإقامة في الحضر. وأخصّ الطباع المكتسبة من المعيشة في الحضر، وأطلق مجتمع مصر اسم الحضارة على ما يسمى بالفرنسية civilisation واسم التحضر والتمدن على ما يسمى بالإنجليزية urbanisation كما أطلق فن تنظيم المدن على الكلمة الإنجليزية urbanisation، الحضارة في اللغة هي الإقامة في الحضر بخلاف الإقامة في البوادي"³.

أمّا التعريف الاصطلاحي للحضارة هو إطلاق لفظ الحضارة على جملة من مظاهر التقدم الأدبي والفني والعلمي والتقني التي تنتقل من جيل إلى آخر، في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات متشابهة، نقول الحضارة الصينية والحضارة الأوروبية وهي بهذا المعنى متقاربة فيما بينها، ولكل منها حضارة نطاقها هي حدودها الجغرافية، وطبقاتها هي آثارها المتراكمة بعضها فوق بعض في مجتمع واحد، أو عدة مجتمعات ولغاتها هي الأداة الصالحة للتعبير عن الأفكار السياسية والتاريخية والعلمية.

وخير وسيلة لتحديد معنى الحضارة هي إطلاق لفظ الثقافة على مظاهر التقدم العقلي وحده، وهي ذات طابع فردي، وإطلاق لفظ الحضارة ومظاهر التقدم العقلي والمادي معا وهي ذات طابع اجتماعي"⁴.

معالم في قراءة مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

إنّ الحضارة كما يعرفها مالك بن نبي: "هي إنتاج فكرة حية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر، هي الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ فينبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج المثالي الذي اختاره وعلى هذا النحو تتأصل جذوره في محيط ثقافي أصيل يتحكم بدوره في جميع خصائصه التي تميّزه عن الثقافات الأخرى"⁵.

فالملاحظ من خلال هذا التعريف أنّ أساس الحضارة هي الأفكار فهو يرى مثلاً أنّ الفضل للفكرة المسيحية في دخول أوروبا التاريخ وبذلك يجب أن يكون للأفكار دور وظيفي لكي يدخل مجتمع ما في التاريخ لأنّ الحضارة عند مالك بن نبي هي القدرة على القيام بوظيفة أو مهمة معينة فهو يقول: "ويمكن تعريف الحضارة في الواقع بأنّها جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات اللازمة لتقدمه"⁶.

ويذهب الأستاذ مالك بن نبي في هذا التعريف بربط الحضارة بالواقع الذي يعيشه الإنسان حيث اعتبر أنّ الحضارة هي جملة من العوامل التي تتمثل في الأفكار، عوامل معنوية أساسية في أي بناء حضاري، وعوامل مادية وهي الوسائل التي يتمّ بها تجسيد هذه الأفكار على أرض الواقع.

ويقول مالك بن نبي: "الحضارة إذن هي التي تمنح المجتمع هذه القدرة الاقتصادية التي تميّزه بخصائصها كمجتمع نام، إدارة استخدام هذه القدرة في جميع المشاكل وخاصة المشاكل التي تواجه المجتمع المتخلف بأشد من القسوة"⁷.

تامي مجاهد

ومن خلال هذا التعريف نلاحظ أن الحضارة هي القدرة التي تتجسد في ضرب أشكال التخلف التي تعيق حركة مجتمع ما والسير به في طريق النمو لتوظيف هذه القدرة الاقتصادية في حلّ مشاكل المجتمع المتخلف خاصة الذي هو أشد تضررا من غيره.

"الحضارة هي التي تشكل هذه القدرة والإرادة اللتين لا تقبلان الانفصال عن وظيفة المجتمع النامي، داخل المساحة الخاصة به في إشعاعه الثقافي والاقتصادي، وحتى توسعه السياسي أو الإمبريالي كذلك"⁸.

ندرك وبجلاء من هذا التعريف أنّ الحضارة تتمثل في كلّ مجتمع بخصوصية تندرج في إطار البعد السياسي والثقافي والاقتصادي الذي يميّز كل مجتمع عن غيره مع التأكيد على أنّ كل من القدرة دون الإرادة أو العكس تكون غير مجدية حيث يعتبر كلاهما متلازمتان لا تقبلان الانفصام عن وظيفة المجتمع.

من خلال جملة من هذه التعاريف للحضارة نجد أنّ كلّها تصب في نفس المنحى بغية رسم الضوابط الفنية للحركة الاجتماعية التي يتكون في بنائها ثقافة كل مجتمع، ويتكون في إطار هذه الثقافة، الحضارة التي توفر الشروط والضمانات الضرورية لكل فرد من أفرادها، حيث في كل ما حدّد من ضوابط سياسية واقتصادية إنّما يشري بذلك الفكر الإسلامي برؤية جديدة يتعامل من خلالها مع القيم والأصالة التي خصّ بها الإسلام العالم الإسلامي عبر العصور.

فمالك بن نبي من خلال هذه التعاريف الجازمة للرؤية الثابتة لمفهوم الحضارة التي نستطيع التعبير عنها أنّها كالجسم، فإنّ إحداث الخلل في عضو من أعضائه فإنه يعيق الحركة أو يكون سببا في الشلل والموت، إذن كان الرجل صاحب رؤية دقيقة في

معالم في قراءة مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

التأسيس لمفهومه هذا حيث كان يدعو إلى بعث هذه القيم في إطار ثورة حقيقية ترتكز في أساسها على ما ارتكزت عليه الثورة الإسلامية في عهد النبوة. لذا يربط مالك بن نبي بين معطيات السنن الإلهية في تطوير المجتمعات وتغييرها وبين نجاحها الفعلي في كل أمة اتخذت طريق هذه السنن في مواجهة مستقبلها. مهما كان اتجاهها الفكري والمذهبي⁹، هذا الربط إنما هو تأكيد للقاعدة التي تقول: إنَّ سنة الله لا تبديل لها، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:11].

وتغيير ما بالنفوس يوجب تغيير ما بالفكر من رؤية الأمور جميعها وما بالروح من رقابة وجمود وتخاذل.

درس مالك بن نبي مفهوم الحضارة من جوانب ثلاث وهي:

1.2 من حيث تركيبها: أي من حيث العناصر الأساسية التي تتكوّن منها الحضارة وهي الإنسان والتراب والوقت ومن هنا تتجلى مشكلة الحضارة في ثلاث مشكلات أولية، مشكلة الإنسان، مشكلة التراب ومشكلة الوقت، فلكي نقيم حضارة يقول مالك لا يكون ذلك بتكديس المنتجات وإنما بحل هذه المشكلات الثلاثة من أساسها ومع ذلك فإن الصيغة التالية كل ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت غير مجدية.

أ) مشكلة الإنسان: إن الإنسان مع مرور جميع الأزمنة وفي مختلف الأمكنة يظل يحتفظ بصورته التي ألهمها الله إياه، إلا أن فعالية هذا الإنسان في صنع الحدث التاريخي يبقى يختلف من زمن إلى آخر ومن مكان إلى آخر، وبذلك يتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي لماذا نجد هذا الإنسان أحيانا عنصرا حيا في التاريخ يسيطر على الأحداث وأحيانا أخرى ساكنا تسيطر عليه الأحداث، نصل إذن إلى أن الإنسان لا

تاي مجاهد

يتغير فيه شيء ولكن فعاليته هي التي تتغير، ولنا عبرة في المجتمع الإسرائيلي أيام فرعون.

حيث أذاقهم جميع ألوان العذاب إلا أنهم استسلموا له ورضوا به وهم له كارهون.

"ولقد ظلّوا على ذلّهم حتى جاء موسى عليه السلام، فأثار قضية بني إسرائيل أوّل ما أثارها في أذهان بني جلدته أنفسهم، فصور لهم حالة خطر أو بالضبط حالة إنقاذ. لا تستطيع معها النفوس أن تعتمد إلّا على الّا استقرار بما يسودها من القلق الدائم"¹⁰.

وبذلك نصل إلى أنّ الإنسان هو جوهر المعادلة المنتجة لأيّ منتج حضاري فلذا يجب أن يكون هذا محلّ اهتمام خاصّ أي: بناء الإنسان بناء متكاملًا " يجب إذن أن نبيّن العوامل التي تحدّد وضع الإنسان في مرحلة معينة من مراحل تطوره.

يمكننا أن نستخلص منها السياسة التي تنطبق على تلك المرحلة، وغني عن البيان أن ظروف الحياة تعدّ نتيجة للحالة العامة في بيئة معينة، وبذلك تكون الظروف (مرحلة) من مراحل الحضارة، لا شكلا من أشكال السياسة. فما الشكل السياسي إلا انعكاس للوضع الحضاري، وكم من ملكيات يتعطل الناس فيها الحفاء وجمهوريات يموتون فيها جوعاً"¹¹، ويبقى الإنسان باعتباره جوهر القضية كما سبق أن ذكرت محلّ اهتمام في أي بناء حضاريّ منشود لأنّ أيّ إهمال في عملية بناء الفرد الذي نعول عليه فإن الهزيمة ستكون حتمية قبل وقوعها، وهذه الملاحظة تسجّل خطأ السياسات التي اتبعها العالم الإسلامي في الصميم، فقد اتجهت في كفاحها إلى المستعمر. دون أن تلتفت إلى الفرد الذي تسخره للقضاء على الاستعمار.

معالم في قراءة مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

"وهكذا يعدّ الإنسان عنصرا في المشروع الحضاري من وجهتين باعتباره ذاتا تحقّق الغاية من المشروع وموضوعا باعتباره هو عين الغاية الموجودة ولما كان وضع إنسان ما بعد الموحدين هو الفرد المستعمر والقابل للاستعمار. فإن العلاقة بين الذات والموضوع هنا علاقة فرد - باعتباره مستعمرا بذاته بأي: (قابلا للاستعمار) وليست علاقة بين مستعمر ومستعمر" ¹².

إنّ مشكلة الإنسان في هذه المعادلة تبقى عالقة، حتى يقترب منها أي مشروع حضاري يرجو لنفسه النجاح، للتعامل معها أحسن المعاملة إصلاحا وتوجيها واستخلاصها من جميع الشوائب التي علقت بها وكانت سببا في استكانتها وتراجعها، ومن ثمّ تبدأ العملية للتخطيط لعملية النمو داخل المجموعة الإنسانية؛ لأنّه وكما سلف الذكر أنّ الإنسان هو مصدر كل عمل يرجى له الفوز وبذلك لا بد من العمل على طرح مشكلة الإنسان على أنّها أساس أي حركة اجتماعية فاعلة، ينتظر فيها انكسار الجمود والتخلف والتعلق بالنمو والمسار الحضاري المنشود الذي يجب أن يبيّن نفسه على أسباب قيامه وليس بتكديس عمل الآخرين وهذه مغالطة سقط فيها الكثير؛ لأنّ الأسباب هي التي توجد الشيء وليس الشيء هو الذي يوجد أسبابه.

يقول مالك بن نبي: "فالشخص في ذاته ليس مجرد فرد يكون النوع وإنما هو الكائن المعقد الذي ينتج حضارة - وهذا الكائن في ذاته هو نتاج الحضارة إذ هو يدين لها بكل ما يملك من أفكار وأشياء" ¹³.

وخلاصة القول: إنّ أي عمل يتيح لمجتمع معيّن أن يؤدي عمله المشترك في التاريخ - لا بدّ أن يدرك أنّ مدى نجاح هذا العمل مرتبط أساسا في صنع الإنسان الذي يعوّل عليه في صنع شبكة هذا المجتمع.

تامي مجاهد

ب) مشكلة التراب: إذ إنّ التراب هو كل ما وجد من أشياء على الأرض وفي باطنها ومالك بن نبي حين يتطرق إلى المشكلة الثانية في عملية التحليل للمنتوج الذي يكوّن الحضارة فإنّه لا يقصد التراب الذي يرتبط بأذهان الناس ولكن معنى التراب ليس هو المعنى المتبادر إلى الذهن، فقد تعمّد استخدام كلمة مادة لأسباب فقال: التراب؛ لأنّ التراب يتصل به الإنسان بصورتين، صورة الملكية أي: من حيث تشريع الملكية في المجتمع الذي يحقّق للفرد الضمانات الاجتماعية، فالتراب هنا شيء حيوي في المجتمع من حيث التشريع، وهو يتصل به بصورة أخرى، من ناحية علم التراب والمعلومات التي تتصل به كالكيمياء وغيرها¹⁴.

إذن مفهوم التراب عند مالك بن نبي يقع بين جانبين، جانب يختص بالتشريع أي: هو البقعة الاجتماعية التي تميّز الإنسان عن غيره من بقية جنسه، وجانب ثان وهو يتصل بعلم الكيمياء أي: الخصوصيات الفيزيائية والبيولوجية التي تميّز التربة وتصنفها ضمن التربة الخصبة من حيث غناها بالمواد العضوية والمعادن والثروات الطبيعية التي تجعلها ثرية يعوّل عليها في أي خطة تنمية سواء تعلق الأمر بالجانب الاقتصادي أو الجانب الاستراتيجي، وبذلك يبقى مفهوم التربة صائبا وذا أهميّة بالغة في التفكير في أيّ عمل حضاريّ يسعى للارتقاء وعليه لابدّ من الدراسة الموضوعية والعلمية لخصوصية تربته من جميع الجوانب المرتبطة بها.

ومشكلة التراب نفسه فقط ولكن مجموع ضروب التراب ليس غير التراب ولكن مع كلّ مشروطيته المتعلّقة بعلم الاجتماع، (conditionnement sociologique)، أي: رضوخه لضرورات فنية معينة بما في ذلك وضعيته القانونية وتوطيئه الفنيّ (son aménagement technique)¹⁵.

معالم في قراءة مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

وأرى أنّ مالك بن نبي استعمل كلمة توظيف التربة التي تحمل معنى أمثل لتجهيز وتوزيع التراب ضمن الإطار الجغرافي وما يدور عليه وفيه من نشاطات اقتصادية في علاقتها المرتبطة بالموارد والإمكانات الطبيعية والفنية، وأعتقد أنّ هناك طريق واحد لتناول هذه المشكلة، حيث يجب أن نستخلص من التجارب البشرية المعيشة التي ترشدنا بدروسها إلى الطريق لوضع ملاحظة ذات أهمية بالغة، هي أن البلدان كلها تمتلك أحيانا أخصب وأغنى تراب في العالم إلا أنّها لم تستطع أن تراوح مكانها.

وذلك يطرح مشكلة أساسية تتمثل في عدم القدرة على الاستغلال الأمثل والعلمي لهذه التربة، ويبقى في حالة سائب، لا تمثل عنصر من عناصر تحضر هذه البلدان.

ج) مشكلة الزمن: إنّنا إذا قسنا الزمن بمقياس الساعات التي لا تتوقف فالقرن لا يساوي شيئا، أي إنّ عامل الزمن يقاس من خلال حظه من فعالية الإنسان وبعبارة أدقّ فإنّ حتمية التاريخ تصبح في ملك الإنسان وتحت رقابته يقول مالك بن نبي: "إنّ الزمن نهر قدس يعبر العالم ويروي في أربع وعشرين ساعة الرقعة التي يعيش فيها كل شعب، والحقل الذي به، ولكنّ هذه الساعات التي تصبح تاريخا هنا وهناك، قد تصبح عدما إذا مرّت فوق رؤوس لا تسمع خريها"¹⁶.

يشير مالك بن نبي إلى أمر بالغ الأهمية وهو عامل الزمن الذي لا يتوقف ولا ينتظر حيث شبهه بالنهر أي: إنّ الإنسان هو الذي يصنع من الزمن في حركة اجتماعية واعية تاريخيا، يرد إلى حقبة الزمنية، ويقول بن نبي: "إنّ مجموع الأزمنة ليس

تامي مجاهد

هو إلا الزمن الذي يتمّ تكييفه اجتماعيا حيث يحوّل إلى زمن اجتماعي بإدماجه ضمن جميع العمليات الصناعية والاقتصادية أو الثقافية باعتباره ركيزة تقوم عليها جميع أطرادات هذه العمليات¹⁷.

فالزمن في هذا التعريف يجرّنا إلى حقيقة الزمن الفعلي الذي يعبر المجتمع فيه عن الإنجازات المختلفة في جميع شبكة نشاطاته الاجتماعية ومن ثمّ يكون هذا الزمن ذا قيمة تاريخية في حياة الأمم والشعوب وهذا ما نلاحظه في تحذير الرسول -صلى الله عليه وسلم- في استسلام المسلمين إلى الأمر الواقع والاستكانة حيث يقول: "إنّما هي أعمالكم تردّ إليكم كما تكونوا يؤلّي عليكم"¹⁸.

وإذا كانت لنا عبرة في ذلك فإنّنا ندرك أنّ الزمن المنتج هو الذي يحسب لنا والذي نترك فيه بصمات إنتاجنا الاقتصادي والثقافي والذي يمرّ علينا فإنّه يحسب علينا وذلك ما أقرّه الشارع الحكيم، حيث إنّ الإنسان حين ينزل عند ربه يُسأل عن عمره فيما أفناه، أي: إن الإنسان مسؤول عن كل دقيقة من حياته فيما أنفقها وبذلك نخلص إلى أنّ الوقت ذو قيمة في حياة الأمم بصفته عامل نهوض وتقدم يجب مراعاتها، وأنّ نحسن استخدامها في إطارها النافع الذي يكسبنا قوة ويثبت خطانا على طريق التقدم والازدهار في حركة التاريخ التي لا تتوقف أي ليس التاريخ ما تصنعه الصدف ولا مكائد الاستعمار. ولكن ما تصنعه الشعوب ذاتها وفي أوطانها.

وكما سبق الذكر إنّ كل ناتج حضاري = إنسان + تراب + زمن غير مجدية. أي إنّ هذه العناصر الثلاثة لا تكون مجدية إلا بوجود مركب يمزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض هو ما يطلق عليه (مركب الحضارة) وهذا المركب هو الفكرة الدينية.

معالم في قراءة مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

وهذه العناصر الثلاثة لا تستطيع أن تشكّل حضارة عندما تكون في حالة صورة سائبة. وإتّما تتمثل ركّاما مكّدسا من الأشياء المبعثرة التي لا معنى لها أي إنّها بعيدة عن أيّ تآلف مركّب تحقّق بواسطته خاصيتها المتمثلة في بناء متجانس يرشد إلى طريق المجتمع المتحضر، يقول مالك بن نبي: "فهذه العناصر الثلاثة التي هي (الإنسان + التراب + الزمن) لا تمارس مفعولها ضمن حالة مشتتة ولكن ضمن حالة تركيب متآلف، يحقق بواسطتها جميعا إرادة وقدرة المجتمع المتحضر"¹⁹.

وبذلك أقول: إنّ الشروط الخاصة بأيّ حضارة لا بدّ ألاّ تقبل أيّ انفصال فيما بينها. حتى تحقّق تركيبها المتآلف بطريقة تلقائية شروط قيامها بوظيفتها كإرادة وقدرة.

وقد صدق مالك بن نبي حين قال: إنّّه ليس من الصّوري ولا من الممكن أن يكون لمجتمع فقير المليارات من الذهب كي ينهض وإنّما ينهض بالرصيد الذي لا يستطيع الدّهر أن ينقص من قيمته شيئا. الرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه: الإنسان والتراب والزمن.

وأرى أنّ جميع الحضارات قد شكّلت تركيبها المتآلف للإنسان والتراب والزمن في مهد فكرة دينية. أي: إنّ الفكرة الدينية هي البوتقة التي يتمّ فيها هذا التركيب التآلفي ويولد فيها جنين الحضارة.

2.2 من حيث وظيفتها: أي باعتبارها وظيفة الحضارة في المجتمع.

تامي مجاهد

إنّ تناول الحضارة من زاوية تأدية وظيفتها داخل المجتمع يجب أن تحدّد ومن ذلك نرى أنّ الحضارة مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تساعد على السير نحو ركب النمو والتطور أي: هي مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معيّن أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في طور أو ذاك من أطوار نموه.

من خلال هذا التعريف الواسع الذي يبيّن مختلف أشكال المساعدة التي يجب على المجتمع المتحضر أن يوفرها لأفراده كالمدارس والمعمل والمستشفى والأمن واحترام شخصية الفرد، إذن كلّها محطّات يجب على المجتمع المتحضر أن يضعها في الحسبان؛ لأنّ مجموع أفراده يمرّون من هنا وهو مطالب بتقديم المساعدة اللازمة للحفاظ على شبكة علاقاته.

وربما كانت هذه هي الحالة التي يعبر عنها الرسول -صلى الله عليه وسلّم- في تحلّل وتمزّق المجتمع الإسلامي الذي أصبح عاجزاً، يقول صلى الله عليه وسلم: "يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلّة إلى قصعتها، قالوا أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا، بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن: قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حبّ الدّنيا وكراهية الموت" رواه أبو داود في سننه 4/111.

إذن من خلال حديث الرسول -صلى الله عليه وسلّم- ندرك أنّه يوجد على كاهل الحضارة شروط يجب أن تتوفر، فإن انعدمت هذه الأخيرة، فإنّ المجتمع يصاب بالتصدّع في شبكة علاقاته الاجتماعية وبذلك تحيل المرض جسده الاجتماعي، ومنه يجب أن نقرّ: إنّ من الخطأ أن تقوم أي حضارة بأداء وظيفتها دون مراعاة خصوصية

معالم في قراءة مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

البلد الذي تسعى إلى إحداث جميع شروط الرخاء والاستقرار لإفراده في جميع الأطوار والميادين التي يدب عليها؛ لذا يقول مالك بن نبي: "فالحلول الفنية ينبغي إذن أن تتكيف مع نفسية البلد الذي تطبق فيه ومع مرحلة تطوره كما أن (الأنا) ينبغي أن تتكيف طبقا للحلول الفنية التي يحاول تطبيقها".

3.2 من الناحية التاريخية والاجتماعية:

أي: كيف تنشأ الحضارة وترتقي ثمّ تنحط؟ إنّ هذا المفهوم الثالث الذي درس مالك بن نبي فيه مشكلة الحضارة أيضا هو الذي له علاقة بعرضنا إن لم يكن هو الموضوع نفسه. إذا أردنا تعبيرا أدقّ فإنّنا نقول: إنّ صناعة التاريخ تتمّ تبعا لتأثير طرائق اجتماعية ثلاث:

أ- تأثير (عالم الأشخاص).

ب- تأثير (عالم الأفكار).

ج- تأثير (عالم الأشياء).

غير أنّ هذه العوالم الثلاث لا تعمل في صورة مشتتة، بل يجب أن تتوافق في عمل مشترك تترجم في نماذج إيديولوجية من (عالم الأفكار). يتم تنفيذها بوسائل من (عالم الأشياء) من أجل غاية يحددها (عالم الأشخاص)، وإذا كان العمل التاريخي من صنع الأفكار والأشخاص والأشياء جميعا، فإنّّه لا يمكن لأيّ عمل تاريخي أن يتم إذا لم تتوفر روابط ضرورية بين هذه العوامل الثلاث من أجل بلوغ عمل متجانس ومشترك. وكما أنّ وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة فإنّ توافق هذه الوحدة مع الغاية منها وهي التي تتجسم في صورة (حضارة) يعدّ ضرورة أيضا وهذا

تامي مجاهد

الشرط يستلزم كنتيجة منطقية وجود عالم رابع هو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية.

أو ما نطلق عليه (شبكة العلاقات الاجتماعية)، والمجتمع في حقيقته ليس مجموعة كمّية من الأفراد بل هو اشتراك هؤلاء الأفراد في العمل الواحد والقيام بوظيفة محددة لبلوغ غاية معيّنة، أي: إنّ عمل أيّ مجتمع ليس اتفاقاً عفويّاً بين العوالم الثلاث بل هو تركيب يرحى من ورائه تغيير وجه الحياة أو بمعنى أدقّ تطور المجتمع.

لذلك يجب أن تتجلى العلاقة الأساسية في عالم لتؤكد وحدة تأثيره منفرداً وفي مدى علاقته في العنصرين الآخرين لتؤكد وحدة تأثيرها في صورة متجانسة وبذلك يتيح نظام علاقاته الاجتماعية يؤدي إلى العمل المشترك لأيّ مجتمع في التاريخ.

وهذا ما نراه في حالة المجتمع الإسلامي ساعة ميلاده وحين نهايته رغم غناه بالعوالم الثلاث عالم (الأشخاص) وعالم (الأفكار) وعالم (الأشياء)، إلّا أنّ شبكته الاجتماعية التي كانت تُكوّن عوالمه الثلاثة قد اختلّ توازنها، وبذلك فقدت العمل المشترك الهادف.

ففعالية الأفكار تخضع إذا لشبكة العلاقات، أي: إنّنا لا يمكن أن نتصور عملاً متجانساً من الأشخاص والأفكار والأشياء دون هذه العلاقات الضرورية وكلما كانت شبكة العلاقات أوثق كان العمل فعالاً مؤثراً.

وبذلك يصبح من البديهي أن أيّة أمة تسعى لتحقيق التقدم الإنساني في أعظم صوره هي التي تحقق شبكة العلاقات الاجتماعية المنسجمة للجسد الاجتماعي سواء تعلّق الأمر بالجانب الكمي من حيث عدد العلاقات التي تحتويها

معالم في قراءة مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

شبكة علاقاته الاجتماعية أو تتعلّق بالجانب الكيفي، أي فعالية هذه الشبكة وتكون بذلك أقرب إلى تلك التي نسجها الإسلام في المجتمع أثناء ميلاده.

وهكذا يمكن أن نتعلم في هذه الظروف المعنى الأول للحضارة وأن معنى التحضر، أن يتعلم الإنسان كيف يعيش في جماعة، ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسة لشبكة العلاقات الاجتماعية، في تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية.

إذن فمن الواجب أن نتجنّد للدفاع عن شبكة علاقتنا الاجتماعية من التمزق والانحلال، وهذا ما نلاحظه في الوصايا الإلهية لموسى عليه السلام وهي تعطينا درسا في الحفاظ والتعلّم تعلّم كيفية العيش مع أهلنا وأقربائنا للحفاظ على شبكة علاقاته الاجتماعية وإتّما تحتل الحضارة إذا ما فارق دعايتها سبلهم التي يسلكونها لأداء نشاطهم المشترك واتبعوا سبلا وطرقا متخالفة، تجعل النشاط مستحيلا، فسبل تنسل إلى حظيرة التصوف، وأخرى تنحدر إلى عالم العجائب الذي هبت منه ريح ألف ليلة وليلة، وثالثة تختار الرقص والغناء بدعوى التحضر.

وهذا ما ينطبق عليه قول الله تعالى في التحذير من التباعد والاختلاف؛ لأنّه سبيل كل هلاك وإتلاف لأيّ قوة اجتماعية تتجلى شبكته حيث يقول: ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام:103].

إنّ أيّ عمل جاد يسعى إلى الحفاظ على شبكة العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع التي تمكنه من العمل المشترك داخل التاريخ لابد عليه أن يمرّ على التربية

تامي مجاهد

الاجتماعية الراشدة "فليست التربية مجموعة من القواعد والمفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع، على عالم الأشخاص وعالم الأشياء".

وليست التربية هي المعرفة للأشياء والإلمام بجميع العلوم والمبادئ الإسلامية دون أن يستطيع هؤلاء تطبيق أي مبدأ واحد وتغيير أنفسهم أو بيئتهم إنما التربية الراشدة هي وسيلة فعالة لتغيير الإنسان، وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكوّن معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن دائماً، وكيف يكوّن معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ.

ومن باب أولى فإننا حين نربي الإنسان فالهدف ليس أن نعلم الناس كيف يكتشفوا أو يقولوا أشياء جميلة، ولكن الهدف أن نعلّم كلّ فرد فنّ الحياة مع زملائه أعني: نعلّمه كيف يتحضر.

ونجزم أنّ أيّ حقيقة لا تؤثر في الثالوث الاجتماعي الأشخاص والأفكار والأشياء فهي حقيقة ميتة.

إنّ جميع المبادئ الأخلاقية، دينية كانت أولاً دينية إنما تنتهي إلى هذا الأساس المتعدي الذي يرتفع فوقه بناء الإنسانية الأخلاقي، كما أنّه هو الذي يؤمن نشاطها المشترك.

ولكن نعطي هذه الرؤية القيمة العلمية يجب أن نتعرض لإجراءات تربية فعلية في المستوى الإسلامي "وبذلك نعطي شبكة العلاقات الاجتماعية أرقى معانيها وأقصى فعاليتها".

3. الخاتمة:

معالم في قراءة مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

وعليه نخلص إلى أن نظرية مالك بن نبي متميّزة بسماتها منسقة لا يوجد فيها تناقض أو تراجع عن فكرة معينة. وكان ابن نبي -رحمه الله- يستمد نظريته هذه من واقع التجربة المعيشة التي اعتمدها العالم الإسلامي في جميع أكوام من منتجات الحضارة أكثر من أن يهدف إلى بناء حضارة، وبذلك كانت رؤية الرجل تنم عن نظرة واعية تستمد قوتها من العالم الإسلامي الذي لا زال بعيدا عن أيّ طموح لبناء حضارة طالما بقي على حالته التي تنطق عن ابتعاده عن روح الإسلام كفكرة دينية واعدة ونزوحه إلى التقليد الأعمى والانبهار بالمشاريع الحضارية الوافدة من وراء البحار لذا كانت نظرية مالك بن نبي صائبة في تصحيح كثير من الشوائب التي علقت بأفكار الأمة وعطلتها عن نهوضها. وكانت سببا في عدم قيام أيّ مشروع حضاري متكامل البنى يستمد روحه من هذه الأمة الطاهرة ويبقى هذا المشروع الطموح يسعى إليه كل فرد عربي مسلم بالعودة إلى التراث العريق الذي يبقى الخام النقي الذي يعول عليه في أيّ تطّلع حضاري منشود.

4. الإحالات:

¹ مالك بن نبي ميلاد مجتمع ترجمة عبد الصبور شاهين - نشر دار الفكر بالجزائر بإذن من دار الفكر بدمشق الطبعة الثالثة 1986-ص 18.

² آمنة تشيكو مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي و أرنولد توينبي - المؤسسة الوطنية للكتاب 3 شارع زيغود يوسف الجزائر 1989 - ص 121

³ مالك بن نبي ميلاد مجتمع ص 19.

⁴ مالك بن نبي - مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي - ترجمة عبد العظيم علي - دار الفكر بيروت 1971-ص 49.

⁵ مالك بن نبي - القضايا الكبرى - إشراف ندوة مالك بن نبي - بإذن من دار الفكر بدمشق الطبعة الأولى 1991-ص 42.

⁶ مالك بن نبي - ميلاد مجتمع ص 78

⁷ مالك بن نبي - وجهة العالم الإسلامي - ترجمة عبد الصبور شاهين نشر دار الفكر بالجزائر بإذن من دار الفكر بدمشق الطبعة الخامسة 1986 -ص 96

⁸ مالك بن نبي - وجهة العالم الإسلامي ص 63

تامي مجاهد

- ⁹ مالك بن نبي - القضايا الكبرى ص 169
- ¹⁰ مالك بن نبي - بين الرشاد والتهيه - بإشراف ندوة مالك بن نبي - بإذن من دار الفكر بدمشق الطبعة الثانية 1988 - ص 68
- ¹¹ مالك بن نبي - القضايا الكبرى ص 56
- ¹² مالك بن نبي - بين الرشاد والتهيه ص 68.
- ¹³ مالك بن نبي - ميلاد مجتمع ص 76
- ¹⁴ مالك بن نبي - القضايا الكبرى ص 57.
- ¹⁵ مالك بن نبي - بين الرشاد والتهيه ص 69.
- ¹⁶ مالك بن نبي - ميلاد مجتمع ص 42.
- ¹⁷ مالك بن نبي - ميلاد مجتمع ص 12
- ¹⁸ رواه أبو بكر نفع بن حارث في مختصر المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة، علي الزرقاني، تح: محمد بن اللطفي الصباغ، دار النشر: المكتب الإسلامي / 1989، ص 772.